﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يغرنكم بالله الغرور . يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ثم كل ذلك لا ينبهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه الا محنة هائلة ان لم يتفضل الله علينا بتوبة نصوح يتدارکنا بها فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنه وفضله *

كتاب الفقر والزهد

﴿ فضيلة الفقر والفقراء الراضين الصادقين ﴾

عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ يدخل فقراء امتي الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام ﴾ وعنه صلوات الله عليه ﴿ من أصبح منكم معافى في جسمه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ﴾ ولما طلبت سادات العرب وأغنياؤهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحى عن مجلسه فقراء الصحابة ترفعا عن مجالستهم اذا جلسوا اليه نزل قوله تعالى ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم ﴾ يعني الفقراء ﴿ تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ يعني الأغنياء ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ يعني الأغنياء . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ يعني ابن

أم مكتوم ﴿ أَمَّا مَنِ استَغنى فأنتَ لهُ تصدَّى ﴾ يعنى هذا الشريف وقال يحيى بن معاذ حبك للفقراء من أخلاق المرسلين وايثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين وعن علىّ رضى الله عنه مرفوعا (أحبُّ العباد الى الله تعالى الفقير القانع برزقه الرّاضى عن الله تعالى) *

﴿ آداب الفقير فى فقره ﴾

اعلم أن للفقير آدابا فى باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها (فأما أدب باطنه) فأن لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعنى أنه لا يكون كارها فعل الله تعالى من حيث أنه فعله وان كان كارها للفقر (وأما أدب ظاهره) فان يظهر التعفف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ففى الحديث : أن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال : وقال تعالى ﴿ يَحسَبُهُمُ الجَاهِلُ أغنِياءَ مِنَ التَّعفُّفِ ﴾ وأما فى أعماله فأدبه أن لا يتواضع لغنىّ لأجل غناه قال علىّ كرّم الله وجهه ما أحسن تواضع الغنىّ للفقير رغبة في ثواب الله تعالى وأحسنُ منه تيهُ الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلّ فهذه رتبة . وأقل منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . وينبغى أن لا يسكت عن ذكر الحق مداهنة للأغنياء وطمعاً فى العطاء وأما أدبه فى أفعاله فأن لا يفتر بسبب الفقر عن عبادة ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فان ذلك جهد المقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى *

﴿ آداب الفقير فى قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال ﴾

ينبغى أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس المال . وغرض المعطى . وغرضه فى الأخذ (أما نفس المال) فينبغى أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات فان كان فيه شبهة فليحترز من أخذه *

(وأما غرض المعطى) فلا يخلو إما أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبته وهو الهدية . أو الثواب وهو الصدقة والزكاة. أو الذكر والرّياء والسمعة *

(أما الأوّل وهو الهدية) فلا بأس بقبولها فان قبولها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ينبغى أن لا يكون فيها منة فان كان فيها منة فالأولى تركها فان علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض

(الثانى) أن يكون للثواب المجرد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فان اشتبه عليه فهو محل شبهة . وان كانت صدقة وكان يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارفا لمعصية فى السر لو علمها المعطى لنفر طبعه ولما تقرّب الى الله بالتصدق عليه . فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوى ولم يكن فان أخذه حرام محض لاشبهة فيه (الثالث) أن يكون غرضه السمعة والرّياء والشهرة فينبغى أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد *

(وأما غرضه فى الأخذ) فينبغى أن ينظر أهو محتاج اليه فيما لا بدّ له منه أو هو مستغن عنه فان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التى ذكرناها فى المعطى فالأفضل له الأخذ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ

أتاهُ شيءٌ مِنْ هـذا المَالِ مِن غَيْرِ مَسألةٍ ولا استشرافٍ فإنّما هُوَ رِزقٌ ساقَهُ اللهُ إليهِ فلا يَرُدَّهُ ﴾ . فأما إذا كان ما أتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء فان كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وامساكه وان كان متكفلا بحقوق الفقراء فليأخذ ما زاد على حاجته فانه غير زائد على حاجة الفقراء وليبادر به الى الصرف اليهم . وبالجملة فالزيادة على قدر الحاجة انما تأتيك ابتلاء وفتنة لينظر الله اليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رفقا بك فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء قال الله تعالى ﴿ إنّا جَعَلنا ما على الأرضِ زِينةً لها لِنبلُوَهُمْ أيُّهُم أحسنُ عَملاً ﴾

﴿ تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب المضطر اليه ﴾

إعلم انه قد وردت مناهٍ كثيرة في السؤال وتشديدات قال صلى الله عليه وسلم ﴿ مَنْ سألَ عنْ غِنىً فإنّما يَستكثِرُ مِنْ جَمْرِ جهنّمَ ومَنْ سألَ ولهُ ما يُغنيهِ جاءَ يومَ القيامةِ ووجهُهُ عظمٌ يتقعقعُ وليسَ عليهِ لحمٌ ﴾ وفي لفظ آخر ﴿ كانتْ مَسألتُهُ خُدُوشاً وكُدُوحاً في وَجهِهِ ﴾ وهذه الالفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيراً بالتعفف عن السؤال وسمع عمر رضي الله عنه سائلا يسأل بعد المغرب فقال لواحد من قومه عش الرجل فعشاه ثم سمعه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عش الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فاذا تحت يده مخلاة مملوءة خبزا فقال لست سائلا ولكنك تاجر ثم أخذ المخلاة ونثرها بين يدي ابل الصدقة وضربه بالدرة

وقال لا تعد . ولولا ان سؤاله كان حراماً لما ضربه ولا أخذ مخلاته . وانما استجاز ذلك رضى الله عنه لكونه لاح له فيه انه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم ان من أعطاه شيأ فانما أعطاه على اعتقاد انه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل فى ملكه بأخذه مع التلبيس وعسر تمييز ذلك ورده الى أصحابه اذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقى مالاً لا مالك له فوجب صرفه الى المصالح وابل الصدقة وعلفها من المصالح نعم يباح السؤال بضرورة أو حاجة مهمة قريبة من الضرورة فالضرورة كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العارى وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه . وهو مباح مادام السائل عاجزا عن الكسب فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلبُ العلم أوقاته . وأما المستغنى فهو الذى يطلب الشئ شيأ وعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا . وأما المحتاج حاجة مهمة فكالمريض الذى يحتاج الى دواء وكمن له جبة لاقميص تحتها فى الشتاء وهو يتأذى بالبرد وكمن يسأل الكراء لفرس . ولاينبغى أن يأخذ مايعلم أن باعثه الحياء فانه حرام محض . وما يشك فيه فليستفت قلبه فيه . وليترك حزاز القلب فانه الاثم وليدع ما يريبه الى مالا يريبه . وادراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته . فان . قوى الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه فلا يتفطن للقرائن الدالة على الكراهة . وبهذه الدقائق يطلع على سر قوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنّ أطيبَ ما أكل الرَّجلُ منْ كَسبِهِ ﴾ وقد ورد فى وعيد من يسأل وهو غنى قوله صلى الله

عليه وسلم ﴿ من سأل عن ظهر غنى فإنما يسأل جمرًا فليستقل منه أو ليستكثر ﴾ وقد ورد فى حد الغنى المحرم للسؤال آثار مختلفة متنوعة يمكن تنزيلها على اختلاف أحوال المحتاجين اذ الحاجة لا تقبل الضبط . فأمرها منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستفتى فيه قلبه ويعمل به ان كان سالكا طريق الآخرة نسأله تعالى حسن التوفيق بلطفه *

﴿ فضيلة الزهد وحقيقته ﴾

قال تعالى ﴿ ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾ وفى حديث عمر رضى الله عنه انه لما نزل قوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ﴾ قال صلى الله عليه وسلم ﴿ تبًّا للدنيا تبًّا للدينار والدرهم ﴾ فقلنا يارسول الله نهانا الله عن كنز الذهب والفضة فأى شئ ندّخر فقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ليتّخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة صالحة تعينه على أمر آخرته ﴾ وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ السخىّ قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار ﴾ والبخل ثمرة الرغبة فى الدنيا والسخاء ثمرة الزهد والثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة . وعنه صلى الله عليه وسلم ﴿ إزهد فى الدنيا يحبّك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبّك الناس ﴾

ثم ان أصناف ما فيه الزهد تكاد تخرج عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال تعالى ﴿ زُيِّنَ لِلناسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّساءِ والبَنِينَ والقَناطِيرِ المُقنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ والخَيلِ المُسَوَّمَةِ والأَنعامِ والحَرْثِ ذلكَ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا ﴾ ثم ردّه في آية أخرى الى خمسة فقال عز وجل ﴿ اعلَمُوا أنما الحَياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ وزِينةٌ وتَفاخُرٌ بينَكُمْ وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ ﴾ ثم رده في موضع آخر الى اثنين فقال تعالى ﴿ إنّما الحياةُ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ ﴾ ثم رد الكل الى واحد في موضع آخر فقال ﴿ ونَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فإنَّ الجَنَّةَ هيَ المأْوَى ﴾ فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه *

والحاصل ان الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها الى ماهو خير منها عاما بأن المتروك حقير بالاضافة الى المأخوذ *

واعلم انه قد يظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد بل لابد من الزهد في حظوظ النفس وينبغي أن يعول الزاهد في باطنه على ثلاث علامات *

(الاولى) أن لايفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى ﴿ لِكَيلاَ تأْسَوْا على ما فاتَكُمْ ولاَ تَفرَحُوا بما آتاكُمْ ﴾ * (الثانية) أن يستوي عنده ذامه ومادحه (الثالثة) أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة *